موســـيقا ...

للأســـتاذ دريني خشبة

كلما جلست وحدى تحت قبة السماء ، لا يمضى غير قليل حتى تملأ أذنى موسيقا الأفلاك ... الأفلاك العلوية ... التى تسبح فوقها الملائكة !

ما أطيب الوَحْدة فى هذا الزمن ! إنها تصلنا بالأول والآخر ، والظاهر والباطن ... إنها تصلنا بالله !

ما أجمل موسيقا هذا الوجود المشرق بنور ربه ! النور الذى يُدَوِّى بأعذب الألحان فى قلوب الشعراء والمؤمنين والمحبين ! النور الذى يفيض على الخمائل فيغنى الورد ، وتصدح البلابل ، وتسقسق العصافير ، ويهتز الأيك ، ويستيقظ الوادى النائم ، ويصحو النهر الوسنان ، وتهرول الأنجم الحسيرى ، ويقف البدر الخجول مستأذناً عند أبواب المغرب الفضية !

غَنِّ يا قلبى فكل ما فى الوجود يغنى !

هات ألحانك فكل ما فى الكون ألحان !

ألحان صامتة هنا ، وألحان مُدَوِّية هناك ؛ وألحان من ألوان الزهر الضاحك ، والقَنَن المورق ، والبلبل الشادى ، والحرير المترقرق ، والنسيم العاشق ، وعبير الحب فى القلوب اليافعة ، وابتسام الأمل فى قلوب العذارى ، وبراءة الطفل وهو يقضم الكلأ ، ثم يحسو جرعة من صفحة الغدير !

تلك موسيقا الخلود أيها الفؤاد المعمود !

ألست ترى إلى قطرات الندى التى تتحدر فوق جبين العامل ! وتفيض ملء أسارير الفلاح ؟ ... إنها صلوات الرجاء الذى لا ينقطع ، وأدعية الأمل الذى لا يخيب ... إن لها بين يَدَى الله لغناء تردده الملائكة من حول العرش ، كما تردده الأطفال من حول الأم ... أما فى قلوب العمال والفلاحين ، فهى موسيقا الإيمان الذى لا ينقم ، والرضى الذى لا يسخط ، والقناعة التى لا تضيق ، والتسليم الذى لا يعرف الحسد

كل ما فى الكون ألحان فتغن يا فؤادى

ليست ألحان الرياح فى أوتار الدوح ، ولا هديل الحمائم فى ضحى القرية ، ولا موسيقا الكروان فى هدأة الليل ، ولا تهدة الحسناء فى ضوء القمر ، ولا تناجى المحبين فى غفلة الرقباء ، ولا همس القُبَل المذعورة فى أول لقاء ، ولا رعشة الشفاه الظامئة وهى تعترف ، ولا المعانى الراقصة وهى تغازل خيال الشاعر ، ولا مس فم الأم وهى تسجل أسرار قلبها فوق جبين الطفل ، ولا قطرات الندى وهى تفتح أكمام الورد ، ولا آراد الشمس وهى توشى أذيال السحاب عند ما يتنفس الصبح ، ولا حفيف الريشة فى يد المصور وهى تجمش اللوحة ، ولا صلاة الناسك وقد فنى فى الله فى سكون الخلوة ، ولا تبرج الموج وهو يعانق حسان الصيف قريباً من الشاطىء ، ولا براءة الطفلة وهى تضم القطيطة إلى صدرها النابض ، ولا غناء القلوب الملتاعة حين تلتقى ، فتتماس ، وتخفق ثم تهدأ ...

ليس هذا كله إلا موسيقا الوجود المتحد ، فغن مع القافلة يا قلبى ! ...

إنحد بالأغنية الكبرى التى تصغى إلى موسيقاها العذبة الحنون ترددها قرائح الشعراء ، وتصدح بها أسراب الطير ، وتنفخ فى نايها أنفاس الريح ، وتستروح إليها قلوب المدنفين ، ويستجيب لها بيان الأديب الذى يغدو لها مزماراً ، ويقدم من روحه لجرسها قيثاراً ، فيجعلها دموعاً فى أعين المحبين ، أو رحمة فى جوانح الحزانى ، أو حمرة فى شفة كل عذراء ، أو سحراً فى أهداب كل حورية ، أو نفحة فى فؤاد كل مبتئس ... أو ما شاء له فنه الذى جعله الله مرآة هذه الحياة الدائبة ، ولسان هذا العالم الشادى

* * *

لله ما فى حناياك من حنايا يا وتر !

تعال أسمعك أناتى التى هاجت حَرَّها أناتك ... أنت أيها المعجب المطرب ، إن عندى ما يشجى وما يبكى ! ... إن هذا النغم الحلو النحيل الذى يمس المشاعر المترنحة كما يمس الفراش أفواف الزهر ... إن هذا النغم الذى يشبه الأهداب الطويلة الناعسة ، هو نغم ضحوك طروب ثمل ، يصدر عنك ولا يرتد إليك . إنه يمس القلوب مساً خفيفاً ثم يمضى كما تمضى الذكريات السعيدة ، ويتبدد كما تبدد الاحلام الفضية ، وقلما يبقى منه شىء فى السويداء تستعين به على تخفيف آلامها وتلطيف مآسيها ... وإن بقى منه شىء فإنما يكون أطيافاً . أطيافاً من آهات ولوعات

ولهفات ، تزيد الشجا فى صدر الشجي ، وتؤجج اللظى فى قلب الشتاق . إنها تزيد المواجع ولا تشفيها ، وتثبتها ولا تنفيها ، إنهـا تفجر دموع الضعفاء الذين يعتزلون الدنيا من أجل غادة ، ويلبسون المسوح من أجل حب خائب ، وغرام تعس

أما موسيقاى يا وتر ! فمن لى بكلمات أعصرها من قلبي دماً ، إذا جعلته سطوراً على أديم طروسى ، وقرأها الناس ، ملأت قلوبهم ، قبل أن تملأ أسماعهم ....!

هذاك قلمى يا وتر ! إنه أشبه اليراعات بالناى الذى يبكى معك ليبكى الناس ! أليس ينفث من شبابه ما تتغنى به الإنسانية من ألحان هذا الزمان المضرج بالدماء ، مثل ما ينفث نايك من ألحانه الحزينة التى يتغنى بها السهاة اللهاة العرابيد !

اسمع إلى موسيقاى يا وتر ، تحملها الصبا من جوانح الأمهات والأيامى والمنكوبات فى جنبات الفستولا وحقاق الياغ وضفاف الروهر . ثم من مغاور الأولب وكهوفه ، وليس من شعافه ومشارفه التى كان يصدح فوقها أبوللو ، إذ تهدهد مركبته أورورا الوردية فوق السحب مطلع كل شمس

هَـلُمَّ أسمعك موسيقاى يا وتر !

هلم أسمعك دقات القلوب النابضة ... القلوب المجروحة ... قلوب العذارى البولونيات اللائى لَدَىَّ من همس عيونهن ، ومشبوب ضلوعهن ، ما لا يدور لك فى خلد ! تعال ... أرهف آذانك التى يملؤها الشدو دائماً بما تتشكى هذه الفتاة التى تقول لى وهى تبكى : « لقد كان لى أب ... لقد كان لى أم ... لقد كان لى حبيب ... والآن ها أنذى جائعة ... ها أنذى ظمآى ... ظمآى إلى كل شىء ... إن صدرى يمزقه الظمأ ، وتشويه الحرق ، وتفتات به الآلام ... وإن جمالى الذى كان العالم يفتتن به ، قد ذبل ، إنه يدمى الآن فى أسمال الفاقة ، وفى وادى الموت والتشريد . إنه يبكى على الآباء والأمهات والأخوة ... وعلى كناره الذى كان يملأ جنة حبه بالشدو ، ويغسل أرضها بالدمع ، ويورق أغصانها بالتغريد ... يارب أين ذهب كنارى ... لم لم يفرد جناحيه للريح حين هبت زوابع الهون ؟ هل ظن أنه يحول بينى وبينهم بأغنياته ؟ ما كان أرق فؤاده يا ربى ؟ ... ولكن ما لى أذكر كنارى الحبيب ولا أذكر بيانكا ... بيانكا الصغيرة ذات العاجين ، التى ظلت تحت الردم يومين ، ولما أخرجت فى الثالث سألتنى بصوتها النحيل الباكى الذى يتحشرج : ماما ... أين ماما ؟ فلما أنبأتها أنها تنتظرها فى الجنة ... تلك الحديقة الكبيرة اليانعة التى غرستها يد الله ، تبسمت ، وأطبقت جفنيها وأسلمت آخر أنفاسها وصعدت إلى الله القادر اللطيف لتقابل أمها فى الحديقة الكبيرة اليانعة ... ولعلها تتذكر حينما تلقى البستانى فتروى له ما صنع الهون

ولأترك لك بقية القصة ، قصة البولونية تلحنها أنت وتغنيها أنت ... وترفرف بها أنت . ثم تبكى بها ملء عيون الإنسانية وملء قلوبها يا وتر !

* * *

تعال ... تعال أسمعك من أناشيدى الباكية يا وتر !

هل سمعت ما قالت كيتى اليونانية ، عذراء كوريتزا ، وهى تبكى ؟! إن أنين القيثار كله يذهب فى بعض أنينها يا وتر ... لقد كانت تذيب روحها قطرات من الدمع المختنق ترسله قطرة فقطرة من عينيها الترعين ، إذ هما ترويان مأساتها ... مأساة أفروديت وبالّلا وسيرز وبندورا ... بل مأساة الجمال والحكمة والخير والأمل !!

أسكبى دموعك يا ورود الحديقة على فينوس الجميلة التى أثخن الأعداء جسمها البض بجروح الوحشية المتبربرة المزهوّة بالطائرات والدبابات والغواصات والطرابيد !

أسكبى دموعك يا ورود الحديقة على أدونيس العُرانق الذى جندله الخنزير البرّى وراح يلغ فى دمه ، ويسلب القوت من أطفاله العُراة الظّماء الجياع الذين هبّوا يردّون عن عرينهم الضبع ، فهب الخنزير البرىُّ إلى معونة ابن عمه ... لكنه ذاده آخر الأمر عن الجثة التى غرز فيها أظافره ، ووقف على رمتها يُقهقه ويُغنى

إسمع إلى كيتى عذراء كوريتزا يا وتر ، وهى تروى مأساتها :

« لقد كان لى أب ... لقد كانت لى أم ... لقد كان لى كِنارٌ حبيب يملأ حديقة حياتى ترجيعاً وتسجيعاً ... يبتسم لى وأبتسم له ... ويملأ قلبى بالمُنى البيضِ ، وأفعم حياته بنُشر الأمانى ... ثم جاءت القائمة السوداء تنعيه من ميدان المجد والشرف ... فلبست عليه البياض الذى ترى يا وتر ... لأنه